التحَري في شأن أبي العلاء المعري

تأليف العلامة الأديب

السيد يحيى بن مطهر بن إسماعيل المتوفى سنة ١٢٦٨

الحديث عن أبي العلاء المعري موضوع هامٌّ وطريف ، تَفَنَّن فيه الكاتبون بما شاءوا من مؤلفات تفخر بها المكتبة العربية ، ولسنا بصدد إضافة شيء إلى ما أبْدعوا فيه ، ولم يتركوا لأحد من بعدهم شيئاً .

وإنَّما الجديد أن نجد شيئاً من التراث عنه لم ينشر ، وكان العلماء منذ القرن التاسع عشر الميلادي قد تتبعوا كل ماله صلة بأبي العلاء بالبحث والنشر والتنويه ، ولم يعد هناك مايجده الباحث حتى ساقتنا الصدفُ السعيدة ووجدنا في الزَّوايا خَبايا فيها ذكر لأبي العلاء . وكانت هذه الرسالة الطريفة التي بين يديك .

الرسالة ومؤلفها : مؤلف الرِّسالة هو العلامة يحيى بن مطهر بن إسماعيل بن يحيى بن حسين ، فهوحفيد المؤرخ يحيى بن الحسين صاحب « أنباء الزمن » وغيره ، وقد استقصينا مؤلفاته في بحث مستقل منشور بمجلة « العرب » (ج ٩ س ٦ ربيع الأول سنة ١٣٩٢هـ) وولد مؤلفنا المذكور بمدينة صنعاء سنة ١١٩٠

ونشأ بحجر أبيه ثم تدرج في طلب العلم فأخذ عن جماعة من علماء عصره منهم الفقيه سعيد بن إسماعيل الرشيدي ، والعلامة الكبير إبراهيم بن عبدالقادر بن أحمد ، والقاضي عبدالله بن محمد مشحم ، وكان على رأس شيوخه العلامة شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني ، أخذ عنه في جل أُمَّهات الكتب كـ « العضد » في أصول الفقه وحواشيه ، وشرح الرضي على « الكافية » و « المطول » و « الكشاف » وغيره ، ثم اشتغل بالتدريس ، وتَبَحَّر في العلوم ، ونظر واجتهد ، وحقق ودقق ، يقول المؤرخ زبارة ـ الذي ننقل عنه هذه الترجمة ـ : كان لا يخرج من بيته غالباً إلا للصلاة أو الجمعة ، وبيته مأوى لأهل العلم ، وله وجاهة عظيمة ، وحج مرتين ، وأقام بحصن كوكبان ، ثم عاد إلى صنعاء .

ومن مؤلفاته « شرح سنن النسائي » ، و« عقد اللآل شرح منظومة الجلال » في المنطق و« الزبدة » حاشية على العمدة و« حلية النحور وشفاء الصدور » ، و« العطايا والمنن ذيل بهجة الزَّمن » لجدهّ المؤرِّخ يحيى بن الحسين ، وله كتاب « بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام » وله « العَنْبر الهندي في سيرة الإمام المهدي » وله غير ذالك من الكتب والرسائل المفيدة ، وقد وصفه شيخه العلامة الشوكاني بقوله : له سماعات كثيرة ، وشغلة تامة بالعلم وتَقَيُّدٌ بالدليل ، ومحبة للإنصاف ، وهو على منهج سلفه في البعد عن أعمال الدولة ، والتكفي بما خلفوه له ، وفيه علو همة ، ومكارم وسيادة ، وفي كل وقت يزداد علماً وفضلاً ، وحسن سمت ووقار ، ويقول معاصره الشجني : لم يكن له شغل في غالب أوقاته بغير التحصيل والتدريس ، يأتيه الطلبة إلى مقامه المأهول بالعلم وأهله فلا يردُّ طالباً ولا مستفيداً في أيِّ وقْت من أوقاته باذِلاً كتبه لمن طلبها منه للاستفادة مجبولاً على مكارم الأخلاق ، قابلاً للحق ، ولو كان من أصغر الطلبة مع سعة صدر وانشراح خاطر .

توفي سنة ١٢٦٨ وقد توسع في ترجمته المؤرخ زبارة في « نَيْلِ الوطر » وشيخنا العلامة حمد الجاسر في مجلة « العرب » س ٢٢ ص ٢٠١ .

وكتابه الذي بين أيدينا رسالة تتوسط مجلد كبير ، جميعه عبارة عن رسائل

للمؤلف ، في عدة موضوعات ، لعل أطرفها هذا الذي نبحثه ، وهو موضوع أبي العلاء المعري ، والجدل الكبير حول معتقده ، وقد أسماه « التحري في شأن أبي العلاء المعري » أبان فيه عن تلك المناقشات والحيرة التي كانت تتردد في أذهان أدباء اليمن خلال تلك الفترة حول إيمان أبي العلاء وكفره ، وأهمية هذه الرسالة ــ في نظري ــ تأتي في عرض المؤلف رأيه في شأن أبي العلاء ، وتبويب النصوص المتعلقة بالمعري وجمعها، وعلى الرغم من أن أكثر مراجعه المستقاة منها أبحاثه معروفة ومشهورة وبعضها لم يرجع إليها إلاّ بالواسطة ، فإن الكتاب كَكُلٍّ هو مرجع ثمين ، يُضَمُّ إلى قائمة مراجع أبي العلاء . وقد أفاد رَأْياً لمؤلف يمني من أهل القرن الثالث عشر ، لم يتناوله أحد قبله من أهل هذا القطر باستثناء ذالك المؤلَّف المفقود الذي ألفه سلفه في القرن التاسع الهجري العلامة محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ وهو بعنوان « نصرة الأعيان من شر العميان » جعله في الرد على أبيات أبي العلاء المعري حول أئمة المذاهب الأربعة .

تقع المخطوطة في تسع ورقات هي عبارة عن المسودة الأولى للمؤلف ، وقد أَرْبَكَ الحواشي بالتعاليق والزيادات الكثيرة حتى انه يختلط النَّص بتلك الإضافات المتعددة ، مما يدل على أن المؤلف كان أثناء التأليف سريع البادرة ، فيهجم على التقييد قبل أن تضيع الفكرة من رأسه ، ثم يأخذ في توسيع الموضوع فيضيف ما عنَّ له بالهامش وهكذا .

ولذا فقد رأينا هذا التحقيق الذي قمنا به ماهو إلاّ استخراج من مسودة المؤلف وهو في ذاته عمل لا بأس به ، ثم بعد الفراغ من معركتنا مع أصل المؤلف ، استعدت الأنفاس ، وأخذت في مقارنة النقول مع أصول المؤلف وبعضها لم نقف عليها هنا في اليمن كما نبَّهنا على ذالك بالهوامش . على أنّها قد أفادتنا في كثير من الإشكالات التي وقفنا عندها طويلاً .

والآن إليك هذه الرسالة الطريفَة كما اتضحت لنا من مسودة المؤلف وبالله التوفيق :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم الذي لا يُغْلَب ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، تعالى عن كل مُشابِهٍ ونظير ، وتنزَّه عن أن يكون في ملكه قصور أو تقصير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله ليأمر العباد بالتوحيد والإخلاص ، ويحضّهم على مايكون لهم فيه النَّجاة والخلاص ، فبالغ في إبلاغ ما أنزل ، وجَدَّ في النُصْحِ للأمة ولم يَهْزل ، فجزاه الله أفضل ماجزا[1] نبيًّا عن أمته ، وأثابه على ما صَنَع في بيان مِلَّتِهِ ، صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم ، صلاة تستغرق مراتب الأعداد ، وتدوم في كل وقت وحين إلى يوم التَّناد ، وعلى آله ومن جرى على منواله ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتَّابعين ، وسلم تسليما ، وله[2] بإحسان إلى يوم الدِّين .

وبعد فإن النَّاسَ في شأنِ أبي العلاء المعري على طبقات ، منهم المُعَدِّلُ ومستنده التَّشيُّع ، ومنهم الجارح له ومستنده ذالك ، ومنهم المنسق له لكلمات رويت مقتضبة . ومنهم من قال : إنه كان فاسد العقيدة أو متحير ، غير حاكم عليه في ذالك ، ومنهم من يحسن الظَّن به ويعتقده من أهل الخير ، ولم يتبين حقيقة الحالة ، وطال بين بعض الناس من أجله الجدل . فعزمت مع الاشتغال بمطالعة بعض كتب الأدب على نقل بعض ماقيل فيه لننظر ما يتلخص في ذالك ، مما يثبت جرحاً أو ينفيه ، وقد صار الأصل إسلامه لثبوته ، ولا ننقل عنه إلاَّ لناقل صحيح ، ولاشك في إسلامه إلاَّ أن إسلامه له شروط وحدود ومعالم ، قلَّ من زاغ عنها يسيراً ورجع إلى دينه سالماً ، كيف وفي شعره مايَدُلُّ على تشيّعٍ كقوله :

وعلى الأَرْض من دِمَا الشَّهِيْدَيْنِ علي ونَجْلِهِ شاهدان
فهما في آخر الليل محراب[3] وفي أوليـاتـه شَفَقَانِ
ثبتا في قميصه ليجيء الدهر مستعدياً إلى الرحمن

وكقوله :

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في مَسْكِ جَفْرِ
ومرآة المُنَجِم وهي صغرى أرتهم كل عامرة وقفر[4]

ذكرهما ابن خلكان[٥] له من اللزوميات إلاّ أنَّ التَّشيُّع لا ينبغي أن يكون سبباً لجرح ولا لتعديل ، فهو صفةكمال إذا كان على الحدِّ المعتبر من كونه ودَّ آل رسول الله ﷺ ، فإن هذا من الأعمال المقبولة التي يتقرب بها إلى الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [٦] . وفي السنة : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعِتْرتي أهل بيتي » وأن اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[٧] وغير ذالك كثيراً جدًّا ، ولكن بشرط عدم السّب لخير القرون فإنَّ ذالك قبيح عقلاً ، ولو لم يُرْوَ نَهْيٌ فكيف بعد وروده[٨] ، فكيف إذا انْضَمَّ إلى ذالك هَجْر سُنَّة معلّم الشرائع ﷺ ، فإنَّ هاتين الخلّتينْ لا يَلِيْقان بعاقل ، وإن كان في عامة الجرأة ، ومع كونه قد قيل في المعري ماقيل ، فهو يتنزه عن هذه الزلة ، وهكذا كل فَاهم من أهل كل ملّة .

فإن قيل : إذا ثبت تشيُّعه ثَبت إسلامه بالأولى .

قلت : لا تَلَازُمَ ، والشأنُ في صحة ذالك فقد يقع لأسباب ولترويج بواطل ، وقد ادّعاه غير واحد لِلتَّسَتُّر به وذلك كعلي بن الفضل[٩] فإنَّهُ ادَّعاه وآل أمره إلى ما آل [حتى أورد عنه الزُّحَيْفُ[١٠] قوله من كتاب : من باسط الأرض وداحيها ، وناصب الجبال ومُرسيها إلى عبده أسعد بن أبي يعفر[١١]] .

فإن قيل : قد يشكك في صحة دعواه التّشيع فكيف لا تشكك في صحة ما نقل عنه ونُسِبَ إليه ؟!

قلت : التشكيك حاصل في ذالك ، إلا أنها قد رُوِيَتْ عنه أمور منظومة ومنثورة تفُوت الحصر ، اتفق على نقل أكثرها المخالف والموالف من الشِّيعة وغيرهم ، حتى صارتْ مستفيْضَةً والاستفاضة من طرق اليقين، وكفى بثبوتها في كتب الشيعة ، وإن كانت أو أكثرها محكية على جهة التمريض ، أو مع الرّد عنها ، فكل ماقيل متكلّف ، والمحامل المبداه[١٢] مُتَعَسَّفَةَ ، ومرجع كل ماقيل إلى أن تلك الأخواض (؟) مفتعلة عليه . وتلك الأشعار مقولة على لسانه من أعاديه ، ومنسوبة إليه ، وهذا قول مردود [١٥٨] فإن في الشيعة كثرة كلية ، وفيهم من له شهرة بذالك جَلِيَّة ، والأعْدَاءُ في كل زمان مع كل انسان أو مع أكثر الناس ، ولم يقع مثل ذالك مع غيره ولا دونه .

وكل حال فالتَّشيُّعُ لا ينبغي أن يكون مُسْتَنَدَ الجرح والتعديل ، إذ هما أمران لا يحصِّل أحدهما مُسَمَّى الجرح إلا بدليل قطعي ، لأنه شهادة عند أهل المذهب لا عند المؤيد[١٣] بالله ، فهو خَبَرٌ لا شهادة فيكفي الظن في التعديل لأنه نفي أمورٍ ، الأصل عَدَمُهَا بخلاف الجرح فهو إثبات أمورٍ الأصلُ عدمُها فلابُدَّ فيه من العلم .

ولابد من استيفاء الكلام :

فأقول كما قاله بعض من ترجمه : هو الشيخ المشهور بأبي العلا أحمد بن عبدالله ابن سليمان التَّنُوخِيُّ المعّري ، من أهل مَعَرَّةِ النُّعمان ، العالم صاحب التَّصانيف ، والذكاء والحفظ ، مولده يوم الجمعة عند مغيب الشمس ، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاث مئة ، بالمعرة ، أُصيب بالجدريِّ وهو ابن أربع سنين وشهر ، سالت إحدى عينيه وانتصبت الأخرى ، ورُويَ عنه أنه لم يُثْبِتْ من الألوان إلاّ الأحمر لأنه ألبس في الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر فثَبَت .

وفي شعره مايدلُّ على إثبات بعض الألوان كقوله :

وسُهَيْـل كوجْنَـةِ الحِبِّ في اللَّو نِ وقَلْبِ الْمُحِبِّ في الْخَفَقَانِ[١٤]

وفي « المعاهد[١٥] » عن المَصِّيصي[١٦] الشاعر أنه قال : لقيت بِمَعَّرةِ النُّعمان عجباً من العجب رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنَّرد ، ويدخل في كل فَن من الجدِّ والهزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أني أحمد الله تعالى على الْعَمَى كما يحمده غيري على البصر .

قال في « النسمة[١٧] » قلت : والشاهد قوله[١٨] :

قـالُوا : الْعَمَى مَنْظِـرٌ قَبِيـحٌ　　قلتُ : فَفُـقْـدَانُـكُـمْ يَهُـونُ
والله مـافي الـوجـود شيْءٌ　　تَـأْسَى عَـلَى فَقْـدِهِ الْعُيُـونُ[١٩]

قال[٢٠] ؛ وهو من بيت علم وفضل ورئاسة[٢١] : له جماعة من أقاربه قضاة وعلماء وشعراء ، قال الشعر وهو ابنُ إحدى عشرة سنة ، أو اثنتي عشرة ، ورحل إلى بغداد ثم رجع إلى المعرة .

ومعنى ماذكر في تاريخ ابن خلكان(٢٢) وغيره حتى قال الحافظ أبو عبدالله الذَّهَبِيُّ في « النُّبلاء »(٢٣) : أن المذكور مكث خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تَزَهُّداً فلسفيًّا ، قال : وكان قنوعاً ، له وقفٌ يقوم بأمره ولا يقبل من أحد شيئاً ولا يتكسبُ بالمديح .

وفيها وفي « الإسعاف(٢٤) » : انه كان قد رحل أوّلاً إلى طرابلس(٢٥) وكان بها خزائن كتب موقوفة فاختار منها ما أخذ من العلم واجتاز باللاذقية(٢٦) ونزل ديراً ، كان بها راهب له علم بأقاويل الفلاسفة فسمع عليه فحصلت له شكوك .

قُلت : فلعل هنا منشأ اعتقاداته الفاسدة .

قالوا : ولقيه رجل فقال له : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان فقال له : فما تَقُول في السِّباع التي لا طعام لها إلا لحوم الحيوان فان كان لذالك خالق فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطبائع المحدثة لذالك فما أنت بأحذق منها ولا أتقن فسكت(٢٧) .

وإلى عدم أكله اللحم أشار عليّ بن هَمام حين رثاه بقوله من قصيدة(٢٨) :

إن كُنْتَ لم تُرقِ الدِّمَاءَ سفاهة ... فلقد أرَقْتَ الْيَوْم من جَفْنِي دَمَا(٢٩)
سَيَّرْتَ ذِكْرَكَ فِي البِلَادِ كَأَنَّهُ ... مِسْكٌ فَسَامِعه يُضَمَّخُ أوْفَمَا
وأَرَى الْحَجِيْجَ إذَا أرَادُوْا لَيْلَةً ... ذكراك أوجب هَدْيَهُ مَنْ أحْرَمَا(٣٠)

قال الذَّهبيُّ(٣١) وغيره وقد سارت الفضلاء إلى بابه وأخذوا عنه وكان أخذ اللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبدالله بن سعد النحوي [وكان واسع الإطلاع والحفظ ، روي أنَّهُ دخل على المرتَضى أبي القاسم ، وعثر بِرَجُلٍ فقال : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسماً ، وسمعه المرتضى وأدناه واختبره ، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذَّكاءِ ، فأقبل عليه إقبالاً كبيرا(٣٢)] .

ويقال : إنه كان يحفظ كلما سمع ، ذكر تلميذه أبو زكريا التَّبْريْزي أنه كان قاعداً في مسجد بمعرَّة النعمان ، بين يدي أبي العلاء يقرأ شيئاً من تصانيفه ،

قال : وكنتُ قد أقمت عنده عدَّة سنين ولم أر أحداً من أهل بلدي فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته فتغيرتُ من الفرح ، فقال لي أبو العلاء : أي شيء أصابك ؟ فحكيت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من أهل بلدي عدة سنين . فقال لي : قم فكلمه ، فقلت : حتى أتم السؤال(٣٣) ، فقال لي : قم وأنا انتظرك فقمتُ وكلمته بلسان الأذربيجية(٣٤) شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما رجعتُ وقعدت بين يديه قال لي : أيُّ لسانٍ هذا ، قلتُ : هذا لسان أذْرَبِيجَان فقال : ماعرفت اللسان ولا فهمته ، غير أني حفظت ما قلتما ، ثم أعاد اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد عليه بل جميع ماقلت وقال : فتعجبت غاية العجب كونه حفظ مالم يفهمه .

ولِلَّناس حكايات يضعونها في عجائب ذكائه وهي مشهورة وغالبها مستحيل .

أما فطنته الخارقة فأمر مشهور ، ذكروا له شواهد [كلعبه بالشطرنج ، مع كونه قد يعجز عنه بعض البصراء ، فإنه عجيب ، فقد روي ان المأمون على فحولته ، وحسن تدبيره في كل باب عجز عنه ، ومن فطنة المعريِّ المقبولة ماروى] أن الشعراء كانوا يعرضون عليه أشعارهم ، فوفد عليه مرّة أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي(٣٥) ومعه جماعة ، فانشدوه ، وأنشده المنازي أبياته في وصف وادي بزاعَا(٣٦) :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وادٍ(٣٧)

الأبيات [ ] مشهورة إلى قوله البيت الذي ماقيل في معناه مثله :

يَـرُوعُ حَصَاهُ حَـالِيَـة الْعَـذَارَى فَتَلْمَسَ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيْمِ(٣٨)

فلما فرغ قال له أبو العلاء : أنت أشعر مَنْ بالشام . ثم غاب المنازيُّ بالعراق والجزيرة مدّة وأستوزره صاحب ميا فارقين(٣٩) أبو نصر الكردي ، وعاد إلى الشام بعد عشرين سنة ، فدخل على المعري مع جماعة من الشعراء فأنشدوه وأنشد المنازيُّ :

لَقَدْ عَرِضَ الْحَمَامُ لَنا بِسَلْعٍ

ـ البيتين ـ فقال أبو العلاء : ومن بالعراق أيضاً . فعجب الناس من عطفه بعد هذه المدَّة الطويلة ، وحفظه لما قاله أولاً .

وله في التلميح المعنى الحسن مع المرْتَضَى .

إنَّ أبا العلاء كان يتعصب للمتنبي والمرتضى ينتقصه[٤٠] ، فجاراه يوماً وعندهما جماعة من أهل الأدب مختلفين فيه ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي إلاّ القصيدة التي أولها[٤١] :

لكِ يامنازِلُ في القُلُوبِ منازِلُ

فأمر المرتضى بإخراجه ، وقال : أتدرون ما أراد الأعمى ؟! إنما أراد قوله فيها :

وَإذَا أَتَتْـكَ مَذَمَّتِيْ مِنْ نَـاقِصٍ فَهِيَ الشَّهادَةُ لِي بِأَنِّيَ فَاضِلُ[٤٢]

وله في شعره معان حسنة جدًّا والحق يقال .

وقد ذكروا أنَّهُ قرأ على محمد بن عبدالله بحلب . وله مصنفات كثيرة منها « الهمزة والردف » ويسمّى أيضاً « الأيك والغُصون » يقارب مئة جزء . قال القاضي أحمد بن خلكان[٤٣] رحمه الله : وحكى لي من وقف على المجلَّد الأول بعد المئة[٤٤] منه ، وقال : لا أعلم ما كان يُعْوِزُهُ بعد هذا المجلد ، وله ديوان سماه « سقط الزَّند » ويسمى شرحه عليه « ضَوْءُ السِّقْط » وسمَّى شرحه لديوان المتنبي « مُعْجِزُ أحمد » ولما فرغ منه وقُرِيَ عليه فيه أخذ الجماعة في وصفه ، فقال لهم : كأنّما نَظَر إليَّ المتنبي بظهر الغيب إذ يقول : [٤٥] .

أَنَا الذَّي نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

ومن مؤلفاته « ذكرى حبيب » وهو مختصر ديوان أبي تمام[٤٦] ، وشرح ديوان البحتري ، وسماه « عَبَثُ الوليد » وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم ، وما أُخِذَ عليهم والانتصار لهم ، والنقد في البعض عليهم ، والنَّاس مختلفون في أمره ، والأكثر على إكفَارِهِ وإلحاده ، وأورد له الرازي في الأربعين[٤٧] قوله :

قُلْتُمْ لـنَـا صَـانِـعٌ قـديـمٌ   قُلْنَـا : صـدقتم كـذَا نَقُـولُ
ثـم زَعَـمـتُـمْ بِـلَا زَمـانٍ   ولا مـكـانٍ أَلَا فـقُـولُـوا
هـذَا كـلام لـكـم خَـبِـيْءٌ   مـعنـاه لَيْسـتْ لَنَـا عُـقُـولُ

قال الرازي : وقد هَذَا في شعره .

وقال ياقوت[٤٨] : كان مُتَّهماً في دينه ، يرى رأي البراهمة ولا يرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل ، ولا بالبعث ولا بالنشور انتهى .

[ومن شعره يسخر[٤٩] :

عقولٌ[٥٠] تستَخِفُّ بها السُّطور[٥١]   ولا يـدري الْـفَتَى لِمَـن الثُّبـور
كِتَـابُ محمـدٍ وكتَـابُ مُـوسَى   وإنْجِيْلُ ابْنِ مَرْيَمَ وَالزَّبُورُ[٥٢]]

ومن شعره في نفي النُّبوة ماذكره الذَّهبي في « النُّبَلاءِ » :

فَلَا تَحْسَبْ مقالَ الرُّسْلِ حَقًّا   ولـكـنْ قـولُ زُورٍ سَـطَّرُوْهُ
وكـانَ النـاسُ في عَيْشٍ رَغِيْـدٍ   فَجَـاؤُوا بـالْمُحَـالِ فَكَـدَّرُوْهُ[٥٣]

وفي « المعاهد[٥٤] » : وقال أبو يوسف عبدالسلام القزويني : قال لي المعري : لم أهْجُ أَحَداً قط ، فقلت له : صدقت إلا الأنبياء عليهم السلام ، فتغير وجهه أو قال : لونه .

ودخل عليه القاضي المنازي فذكر له ماسمعه عن الناسِ من الطَّعن عليه فقال : مالِي وللنَّاس وقدْ تركت دنياهم ؟! فقال القاضي : وأُخراهم ؟! فقال : ياقاضي وأُخراهم !! وجعل يكرر أخراهم .

وعن أبي زكريا الرازي قال : قال لي المعري : ما الذي تعتقد ؟ فقلت في نفسي : اليوم يتبين لي اعتقاده ، فقلت له : ما أنا إلاّ شَاكٌّ . فقال : وهكذا شَيْخُكَ !!

وحكي عن الشيخ كمال الدين الزملكاني[٥٥] أنه قال في حقه : هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبتْ .

[قال في « المعاهد[٥٦] » : وقد تلاعب الشعراء بهجائه وممن هجاه أبو جعفر اليماني[٥٧] الزوزني بقصيدة أولها :

كَلْبٌ عَـوَى بِمَعَـرَّةِ النُّعْـمَـانِ لَمَّـا خَـلاَ عَنْ رِبْقَـةِ الإِيمَـان
أَمِعَـرَّةُ النعمان مـا أَنْجبْتِ إِذْ أَخْـرَجْتِ مِنْكِ مَعَـرَّةَ الْعُمْيَانِ]

قلت : وقد رأيتُ كلمات غير واحد من الشيعة قد أجابوا عن بعض ماهو منسوب إليه إلاَّ التي في نفي النُّبُوَّات والتي قبلها فلم تُرد إلاَّ بقول كلى (؟) [ذكره في « المعاهد[٥٨] » وغيرها عن أبي اليسر[٥٩] المعري : أن أبا العلاء] كان يرمي من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، وفي ذالك يقول :

حـاول[٦٠] إهـواني قـومٌ فَـمَا وَاجَـهْـتُـهُـمْ إلاَّ بِـإِهْـوَانِي
يحـرسني[٦١] منهم سِعَـايَـاتُهُـمْ فَـغَـيَّرُوا نِـيَّـةَ إِخْـوَانِي
لو اسْتَطَاعُوا لَوَشوا بي[٦٢] (م) إلى الْمِرِّيْخِ في الشُّهْبِ وكَيْـوَانِ

وفي البيت الثاني في « المعاهد » حقاً وجدته[٦٣] صاحب « النَّسمة » وقد ظنيت[٦٤] عليه [وتأمل قوله لو استطاعوا لوشوا بي إلى المريخ الخ ، تجد فيه مايدلك على إعراضه عن الله وعدم خوفه منه نسأل السلامة من الخذلان][٦٥] .

قال الصلاح الصفدي[٦٦] : أما الموضوع على لسانه فلعله لا يخفى على ذي لُبٍّ وأمَّا الأشياء التي دَوَّنَها ، وقالها في « لزوم مالايلزم » وفي « استغفر استغفري[٦٧] » [قيل وسبب تسميته به أنه يقول خشية هذه [. . . .] استغفر واستغفري[٦٨]] فما فيه حيلة ، وهو كثير من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنُّبوات . ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذالك كله انتهى .

قلت : ومن شعره في القدح في النبوات ولعلى من الله[٦٩] في « النبلاء » :

دِينٌ وكُفْـر وأَنْبَـاءٌ تُقَـالُ وفُـرْ قَـانٌ يُنَصُّ وتَـوْرَاةٌ وإِنْجِيْـلُ
في كُلِّ جِيْلٍ أَبَاطِيْلٌ يُدَانُ بِهَا فَهَلْ تَفَرَّدَ يَوْماً بِالْهُدَى جِيْلُ[٧٠]

فأجابه الحافظ الذَّهبيُّ :

نَعَمْ أَبُو الْقَاسِمِ الهادِيْ وأُمَّتُهُ   فَزَادَكَ الله ذُلًّا يا دُجَيْجِيلُ(٧١)

ومن شعره في إنكار المعاد ، وهو من الأسباب الباعثة على هذا التحري فرقمه حين الانتهاء [في القراءة] إلى بحث تقديم المسند(٧٢) إليه من الشرح لفظه :

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ   حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ(٧٣)

وقد اعتذر له وادُّعي وضوح المعنى : أن المراد بالحيوان والمتحير فيه كونه خلق من جماد ، وهو التراب ، ويرده عَدَم تحير فرد نقل عنه فضلاً عن أفراد فكيف بالبرية بأسرها ، وهل ذالك إلاَّ من إنكار القدرة ، والله على كل شيء قدير ﴿ **إنّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ له كُنْ فيكون(٧٤)** ﴾ وفي الكتاب : ﴿ **إنَّ مثَلَ عِيْسَى عِنْد الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب(٧٥)** ﴾ ، وكم يَعُدُّ العَادُّ ، وانظر في مباديء الخلق ، ولا يسع إلاَّ الإيمان . وما أحسن قول ابن الفارض(٧٦) .

وَلَاتَكُ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ دروسُهُ   بِحَيْثُ اسْتَقَلَّتْ عَقْلَهُ واسْتَقَرَّتِ

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ   مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيْمَةِ

والذي في « المعاهد(٧٧) » بعد ايراد بعض القصيدة ما لفظه : في معنى البيت يقول تحيرت البرية في المعاد الجسماني والنشور الذي ليس يتفانى ، وفي أن أبدان الأموات كيف تحيى من الرفات ، وبعضهم يقول وبعضهم ينكر ، وبهذا يتبين أن المراد بالحيوان المستحدث من الجماد ليس آدم عليه السلام ، ولا ناقة صالح ، ولا ثعبان موسى ، إذْ لا يُناسب السِّياق ، وقال أبو محمد بن السيد البطليوسي(٧٨) حين شرح « سقط الزّند(٧٩) » في هذا البيت : يريد أن الجسم مَوَّاتٌ بطبعه ، وإنما يصير حيواناً حساساً متحركاً باتصال النفس به ، فإذا فارقته عند الموت عاد إلى طبعه . فالحياة للنفس جوهرية وللجسم عرضية ، فلذلك يعدم الجسم الحياة إذا فارقته النفس ، ولا تعدمها النفس . انتهى .

ومن شعره في المعنى :

ضَحِكْنَا وكَانَ الضِّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً   وَحُقَّ لِسُكَّانِ الْبَسِيْطَةِ أَنْ يَبْكُوا

تُحَطِّمُنَا الأَيَّامُ حتَّى كَأَنَّنَا زُجَاجٌ وَلكِنْ لاَ يُعَادُ لَنَا سَبْكُ

هكذا في أصل « المعاهد[٨٠] » : لا يعادلنا وفي الهامش مسح بله(؟) .

وقد قيل في الاعتذار له : بأن المراد : وأما نحن فَيُعاد لناسَبْكٌ بإعادة الأرواح والأجسام وذالك إقرار بالبعث والنُّشور ، ولا صحة لما ذكر خصوصاً على ماهو المصدر ، وعلى الثانية فيلزم أن يكون لا معنى لذالك العجز ، إذ يصير كـ(السماء فوقنا) وقد قيل : إن الزُّجاج يُدَقُّ ويعاد سَبْكُه فبطل ماقيل .

وعن الشيخ فتح الدين ابن سَيِّد الناس[٨١] أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[٨٢] كان يقول في حقه : هو في حيرة[٨٣] .

قال الصلاح الصفدي[٨٤] : وهذا أحسن مايقال في أمره لأنه قال من الدالية[٨٥] :

خُلِقَ النَّاسُ للبقاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ للنَّفَادِ
إنَّما يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لٍ إلىَ دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
[بأنَ أَمْرُ الإلَهِ واخْتَلَفَ النَّا سُ فَدَاعٍ إلىَ ضَلاَلٍ وَهَادِ[٨٦]]

قلت : وكذا قوله منها :

قَدْ أَقَرَّ الطَّبِيْبُ مِنْكَ[٨٧] بِعَجْزٍ وَتَقَضَّى تَرَدُّدُ الْعُوَّادِ
وانْتَهى الْيَأْس مَنْكَ وَاسْتَشْعَرَ النَّاسُ مِنْكَ بأَنْ لاَ مَعَادَ حَتَّى الْمَعاد[٨٨]

قيل : الداعي إلى ضلال عبده ، ومن يقول بالمعاد والهادي الذي يقول بعدمه ، وهذا بيت الاستشهاد وبعده :

واللَّبِيْبُ اللَّبِيبُ من لَيْسَ يَغْـ (م) تَرُّ بِكَوْنٍ مصيرُهُ لِفَسَادِ[٨٩]

وهذا مناقض لقوله : خُلق النَّاس للبقاء فالمصير إلى فساد زيادة على النفاد به :

ومن كلام الصفدي[٩٠] مالفظه : وقال ــ يعني المعري ــ : في خراب العالم :

ومحل أشرف الكواكب[٩١] دَاراً من لقاءِ الرَّدَى علَى مِيْعَاد
والثُّريَّا رَهِيْنَةٌ بافْتِرَاق الـ ـشَمْلِ حتَّى تُعَدُّ في الأَفْرَادِ

قال : وهذا قول بفناء هذا العالم وخرابه ، ثم إنه خالف هذا الرأي فقال :

رَاحَ مَنْ رَاحَ وَالثُّرَيَّا الثُّرَيَّا وَالسِّمَاكُ السِّمَاكُ وَالْغَفْرُ غَفْرُ
وَنُجُومُ السَّمَاءِ تَعْجَبُ مِنَّا كَيْفَ تَبْقَى مِنْ بَعْدِنَا وَنَمُرُّ

وبعد كلام ما نَصُّهُ : ذهب الحكماءُ إلى القول بعدم أربعة أشياء وهي الزَّمان والمكان والهيولى والصورة ، وقال أفلاطون بقدم النفس حتى جاء أرسطاطاليس ففرض[٩٢] حدوثها ، وخالف أفلاطون ، وقال : هو صديقي والحق أصدق لي منه ، ورتبوا على هذه المقالة : أن العالم باقٍ ببقاء واجب الوجود ، لا يتغير نظامه ، ولا يبلى ولا يحول ولا يزول منه ، وهي من المسائل التي كُفِّروا بها . والصحيح ماذهب إليه المتكلمون فإنهم استدلوا على حدوث العالم بمجموعه ، وبرهنوا على دعواهم ، وقرروا الأبحاث في ذالك مع خصومهم ، وليس هذا مكان شيء من تلك البراهين لما فيها من تقرير المقدمات التي تنتج المطلوب على ذالك ، فليؤخذ ذالك من كتب الكلام ، والنَّاظم جارٍ على طريقة الحكماء ، والقول بقدم ماذكر وإنكار المعاد ، وقد يناقض كلامه في مواضع ويعارض في مواضع • ومما عورض به ، ماروى عنه من إنكار المعاد قوله من مرثية[٩٣] :

جَازَاكَ رَبُّكَ بِالْجِنَانِ فَهَذِهِ دارٌ وَإِنْ حَسُنَتْ تَغُرُّ بِسَمْتِهَا
ضَلَّ الَّذي قَالَ البِلادُ قَدِيمَةٌ بِالطَّبْعِ كَانَتْ. وَالأَنَام كَنَبْتِهَا

قال شارحه البطليوسي[٩٤] : هذا رَدٌّ على الدهريين الذين قالوا إن العالم قديم بالطبع ، والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيماً ، وهذا كفر صريح وضلال بعيد ، بل الحق أنَّ العالم مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ أحدثه الله الواحد القادر بقدرته ، انتهى .

ولو صح تأخر قوله لما ذكر ، لكان بعدم قوله لما يخالف ذالك موحياً للتوقف في حقه ، إذ يحتمل قصد التعمية كما هو الغالب على أكثر الزنادقة ، ولذا يقع الاختلاف فيهم ، ولو تبينت الحقيقة لوقع الحكم عليهم بشيء [....] جَزْماً فكيف مع عدم علم التاريخ وما الذي أَلْجَأَهُ إلى إيثار ما يخالف الصَّواب بعد النَّهي

الشرعي عن تجنب مواضع التُهم ، هو مما يخدش في العدالة فما ظُنك بما يخدش في الدين .

ومن شعره في إثبات المعاد من مَرْثيته لوالده التي طالعها[٩٥] :

وأمـامَنـا يَـوْمٌ يقـومُ هُجُـودُهُ   من بعـد إبْلاءِ الْعِظَامِ ورَفْتِهَا

والجواب عنه كغيره . .

ومن شعره الدّال على التباس أمره قوله من إحدى لاميته :

فَيَـاوَطَنِي إنْ فَـاتَـنِي بِـكَ سـابِقٌ   مِنَ الـدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ بِسَـاكِنِكَ الْبَـالُ
فَإنْ أَسْتَطِعْ فِيْ الْحَشْرِ آتِكَ زَائِـراً   وهَيْهَـاتَ لِيَ يَـوْمَ الْقِيَـامَةِ أَشْغَـالُ!

قال شارحه[٩٦] : أي إذا حال الدهر بيني وبين وطني وأمكنني يوم القيامة زيارته زرته قضاءً لحقه ولكن بَعُدَ ذالك جِدًّا لكثرة الأشغال بها ، إذْ لكل امريءٍ يومئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهِ ، انتهى .

وقد جعل حجة له ، ومن كان راجياً في الله الخير كيف يقع منه التمني للعود إلى وطنه من الدُّنيا التي هي جملتها أحقر عند الله وعند الصالحين من عباده من كل شيء ، فكيف في حالة يحق فيها الفوز بدار القرار ، وكأنه من تَمَنِّي الرجعة للإصلاح ﴿ ولو ردوا لعادوا[٩٧] ﴾ كما قال الله سبحانه .

وقوله : (وهيهات لي يوم القيامة أشغال) كأنه يشير إلى ماعليه من التبعات من مثل هذه الهنات ، وأنَّ فيما دونها أعظم شُغل عند من يوقن بالحساب ، ويصدق بالسؤال نَسأل الله تعالى التثبيت لما يزلفُ ونعوذ به من سخطه خُصوصاً يوم الوقوف بين يديه آمين .

ومن شعره في نفي الحكمة[٩٨] :

تَنَـاقُضٌ مَـالَنَـا إلاّ السُّكُـوتُ لَـهُ   وَأَنْ نَعُـوذَ بِمَـوْلاَنَـا مِنَ الـنَّـارِ
يَـدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجَـدٍ وُدِيَتْ   مَـابَـالُهَـا قُطِعَتْ فِي رُبْـعِ دِيْنَـارِ؟

وفي نسخة بتأخير : مالنا إلا السكوت له ، قيل في الجواب عليه : كانت أمينة ثمينة ، فلما خانت هانت .

وأجابه علم الدين السخاوي[٩٩] بقوله :

صِيَانَةُ الْعِرْضِ أغْلاَهَا وأرْخَصَهَا ... خِيَانَةُ الْمَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي[١٠٠]

وقد سأله القاريُ لهما عليه : ما معناهما فقال : هذا مثل قول الفقهاء عبادة لا يعقل معناها[١٠١] .

وقد ذهل عن خزْي المعصية وموجب المخالفة وغفل عن كل ذا إبليس ولعنه ، ونسي إخراج آدم من الجنة حين نسى ، بذالك السَّبب اليسير عُوقب ، ولايزال عار الذنب عليه حتى القيامة حين يطلبُ منه الشفاعة ﴿ **إنّ في ذَالِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ**[١٠٢] ﴾

ومن شعره المنسوب إليه قوله :

بِالْقَادِسِيَّةِ فِتْنَةٌ مابَيْنَ أَحْمَدَ وَالْمَسِيْحْ[١٠٣]
هذَا بِنَاقُوسٍ يَدُقُ وَذَا عَلَى جَبَلٍ يَصِيْحْ
كُلٌ يُقَوِّيْ قَوْلَهُ يَالَيْتَ شِعْرِي مَا الصَّحِيْحْ ؟!

قال الذَّهبي[١٠٤] : وله أبيات تدل على أنه كان دهريًا ملحداً مُفْحشا في قوله ، موحشاً في اعتقاده وهن قوله :

صَرْفُ الزَّمَانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنْ ... فَاحْكُمْ إلهي بَيْنَ ذَاكَ وبَيْنِي
أنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمّداً ... وَبَعَثْتَ أنْتَ لِقتلها مَلَكَيْنْ[١٠٥]
وزَعَمْتَ أنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً ... مَا كَانَ أغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنْ

انتهى الزعم ، وأكثر مايستعمل في الباطل . ومنه قوله ﷺ : « زَعَمُوا مطية الكذِب[١٠٦] » . وقال شريح[١٠٧] لكل شيء كُنْيَةٌ ، وكنْيَةُ الكذب زعموا ، وقد استعمله في خطاب القدوس الأزلي المتعالي عما يقول الملحدون ، ونستغفر الله من إيتاء مثل هذه الأباطيل النادبة من مكان قريب (؟) .

وقد عارض القرآن بكتاب سماه « الفصول والغايات في عراض السور والآيات » وقيل له : أين هذا من القرآن ، فقال : إن هذا لم تصقله المحاريب منْذُ أربع مئة سنة ، يعني على زعمه

أنه لو كان لكلامه هذه المدة لأَنِسَ الناس إليه ولم تمجه الأسماع ، وهذا خيال باطل ، فله ولشعره إلى الآن نحو ألف سنة إلّا مئتين أو نحو ذالك ما لحق بشعر البلغاء من العرب ونحوهم كأبي تمام والبحتري والمتنبي ، ونحوهم الذين عُنِي بنظر عمره في خدمة كلامهم كما عُني غيْره بالقرآن[١٠٨]] .

ولابد من استيفاء الكلام له وعليه ، في « المعاهد[١٠٩]» وغيرها مالفظه : وقال السلفي : مما يدل على صحة عقيدته ماسمعت الخطيب حامد بن بختيار النُميري يحدث بالسمر مه (؟) مدينة الخابور قال : سمعت القاضي أبا المهلب عبدالمنعم بن [أحمد] السروجي يقول : سمعت أخي القاضي أبا الفتح يقول : دخلت على أبي العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم في وقت صلاة بغير علم منه ، وكنتُ أتردد إليه واقرأ عليه فسمعته ينشد قوله :

كـم غُـوْدرتْ غـادة كَـعَـابٌ وعُـمِّـرت أُمُّـهَـا الْـعَـجُـوزُ
أَحْـرَزَهَـا الْـوَالِـدْانِ خَـوْفـاً وَالْـقَـبْرُ حِـرْزٌ لَهـا حَـرِيْـزُ
يَجُـوزُ أَنْ تُـبْـطِئَ الْمَـنَـايَـا والخُـلْد في الـدهـر لا يَجُـوزُ

ثم تأوَّهَ مَرَّاتٍ وتلا في ذالك الآية ﴿ لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرةِ ذالِكَ **يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذالِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ** . وَمَا نُؤخِرُهُ إلاَّ لأجلٍ مَعْدُوْدٍ يَوْمَ يَأتِ لا تَكلَّمُ نَفْسٌ **إلاَّ بِإذْنِهِ فَمِنْهُم شَقِيٌ وَسَعِيدٌ** ﴾ ثم صاح وبكى بكاء شديداً ، وطرح وَجْهَهُ على الأرض زَماناً ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سُبْحَانَ مَنْ تَكَلَّم بِهَذَا في الْقِدَمِ .

قُلت : ياسيدي أرى في وجهك أثر غيظ فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام [المخلوق . وتلوت شيئاً من كلام[١١٠]] الخالق فلحقني ماترى ، فتحققت صحة دينه وقوة نفسه . انتهى .

أقول : هذه الحسنة الجليلة المغمورة بين السباب المهيلة يرجع فيها إلى التاريخ فهل كان ذالك عند الموت ، وقد أجابه في البيت [الأخير السيد محمد بن إسماعيل الأمير[١١١] رحمه الله بقوله[١١٢] :

والله مـا أخْـطَتِ المـنَـايَـا وَلَا عَـلَيْـهَـا الْخَـطَا يَجُـوز[١١٣]
وإنَّمـا خَـالِـقُ الْـبَرَايَـا الـواحِـدُ الـقـاهـرُ الـعَـزِيـزُ

قَدَّرَ آجَالَهُمْ كَمَا شَا   الطِّفْلُ والكهل والعجوز
فَمَنْ تَعَامَى وَكَانَ أَعْمَى   أَنَّى لِنَيْلِ الْهُدَى يَجُوزُ؟

ومن شعره قوله :

أَخَفْتُمُ السَّابِحَ فِي لُجِّهِ   وَرُعْتُمُ فِي الْجَوِّ ذَاتَ الْجَنَاحْ
هَذَا وَأَنْتُمْ عَرَضٌ لِلرَّدَى   فَكَيْفَ لَوْ خُلِّدْتُمُ يَاقِبَاحْ

وأجاب عليه السيد العلامة البدر محمد بن إسماعيل الأمير بقوله :

يَابَرْهَمِيَّ الشَّرْعِ رَبِّي الَّذِي   لِصَيْدِ بَرٍّ وَلِبَحْرٍ أَبَاحْ
لَوْ كُنْتَ تَقْرا الذِّكْرَ والسُّنَّةَ الْـ   ـغَرَاءَ مَا قُلْتَ لَهُمْ يَاقِبَاحْ
فَمَا عَلَى مَنْ صَادَ حُوتاً وَلاَ   ذَاتَ جَنَاحٍ مَاعَلَيْهِ جُنَاحْ

وأجابه أيضاً بقوله(١١٤) :

حَرَّمْتَ أَكْلَ اللحْمِ يَاجَاهِلاً   وَلُمْتَ مِنْ جَهْلِكَ أَهْلَ الصَّلاَحْ
وربُّنَا امْتَنَّ عَلَيْنَا بِمَا   نَصِيدُ مِنْ حُوتٍ وذَاتِ الْجَنَاحْ
تَفَضُّلاً يا مُنْكِراً فَضْلَهُ   فَمَا عَلَيْنَا فِي مُبَاحٍ جُنَاحْ
قَلَّدْتَ أَهْلَ الكُفْرِ لكِنَّنَا   نَتْبَعُ آيَاتِ الكتابِ الصِّحَاحْ

[١٦٣] والثابت عند أهل الموت (؟) ما سيأتي نقله عن الثَّبت الذي لا يدافع [في قول](١١٥) :

ومن شعره المنسوب إليه فيما رأيت قوله :

وإنَّما حُمِّلَ التَّوْرَاةَ قَارِئُهَا   كَسْبُ الْفَوائِدِ لاحُبُّ التِّلاَوَاتِ
وَهَلْ أُبِيحَتْ نِسَاءُ [الروم] عَنْ عَرَضٍ   لِلْعُرْبِ إلَّا بِأَحْكَامِ النُّبُوَّاتِ(١١٦)

ومن التزاماته في إثبات تأثير النجوم ، وهو يكفر معتقد استقلالها بالتَّأثير :

قِرَانُ الْمُشْتَرِي زُحَلاً يُرَجَّى   لإِيقَاظِ النَّوَاظِرِ مِنْ كَرَاهَا
تَقَضَّى النَّاسُ جيلاً بَعْدَ جِيْلٍ   وَخُلِّفَتِ النجومُ كَما تَرَاهَا
تَقَدَّمَ صاحِبُ التَّوْرَاةِ موسى   وَأَوْقَعَ بِالْخَسَارِ مَنِ افْتَرَاهَا

فَقَالَ رِجَالُهُ وَحْيٌ أَتَاهُ ... وَقَالَ الآخَرُونَ[117] بَلِ افْتَرَاهَا
وَمَا حَجِّيْ إِلَى أَحْجَارِ بَيْتٍ ... كُؤُوْسُ الْخَمْرِ تُشْرَبُ فِي ذُرَاهَا
إِذَا رَجَعَ الحَكِيْمُ[118] إِلَى حِجَاهُ ... تَهَاوَنَ بِالْمَذَاهِبِ وَازْدَرَاهَا

فصرح بتأثير النجوم ، وبأنَّ التّوراة مُفْتَراةٌ [في قول] .

وأخبر بأن الخمر تشرب في ذروة تلك الأحجار ، وذروة الشيْء أعلاه ، وبأنَّ الرجوع إلى العلمية[119] من الحكيم يوجب التهاون والإزدراء ، وليس على زيادة .

[وما أحسن قوله : إذا رجع الحكيم . . الخ . لا بالمعنى الذي أراده ، بل الحكيم بمعنى اليقظ ، والمذاهب تُزْدَرَى باعتبار مايقع فيها من التعصبات ، وليس الحكم المتبع حقاً إلا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية[120]] .

وفي الرَّد على الدَّهريين من الحكماء قوله :

مَنْ قَالَ إِنَّ النَّيِّرات عَوَامِلٌ ... فَبِضِدِّ ذَالِكَ فِي عُلاكَ يَقُولُ
يَعْمَلْنَ فِيما دُونَهُنَّ بِزَعْمِهِ ... وَهُنَّ دُوْنَكَ مَطْلَعٌ وَأُفُولُ

ومن شعره المعتذر له يدلّ على إنكاره تأثير النجوم من النونية مُخاطباً للمكتوب إليه وهو الشريف المرتضى العلوي[121] :

يا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِبَدْرٍ ... وَمُبِيدِ الْجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ
أَحَدُ الْخَمْسَةِ[122] الَّذِينَ هُمُ الأَعْرَا ... ضُ فِيْ كُلِّ مَوْطِنٍ[123] وَالْمَعَانِي
والشُّخُوصُ التي خُلِقْنَ ضِيَاءً ... قَبْلَ خَلْقِ الْمِرِّيْخِ والْمِيْزَانِ
قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَوَاتُ أَوْ تُؤْ ... مَرَ أَفْلاكُهُنَّ بِالدَّوَرَانِ

قوله : أو تؤْمَرَ أفلاكهن بالدوران . . قال شارحه : فيه تكذيب ، من قال بأنه يعتقد مذهب الحكماء القائلين بأن لها تأثيرٌ .

أقول : لكنه قد أثبته في أبيات عديدة غير هذه ، ونحنُ لا ننكر أنَّ للنجوم تأثير بقدرة الله تعالى ، وخواصات أودعها الله سبحانه فيها ، كيف ولِنجُوم الأرض آثارٌ وخواصات لا تجحد وهذه أجل ، إنما النزاع في اعتقاد استقلالها

بالتأثير ، أو جعل الآثار العظيمة على فرض الاقتدار في أمور محرمة ، من إنزال الضرر ، والجمع أو التفريق عصياناً لله أو نحو ذالك .

وله الخبر الشهير في قصة الوزير ، ذكرها من ذكر أولاً[١٢٤] . . وابن الوزير ، وهو السيد العلامة الهادي بن إبراهيم[١٢٥] في كتابه المسمى بـ « الأجوبة المذهبة على المسائل المهذبة » ــ بعد أن ذكر المعري على تعصبه للتشيع بما لفظه : وفي شعره ما يدلُ على الإسلام ، لولا نزغات منه تدل على مخالفة موضوع الشريعة المطهرة ، وإلا ففي شعره ما يدلُ على تشيعه فضلاً عن إسلامه ، وذالك قوله : وعلى الدهر ــ الأبيات .

ثم استوفى قصة الوزير كما هي في « النبلاء » . وهو ماحكاه أبو حامد الغزالي في كتابه « سر العالمين وكشف مافي الدارين[١٢٦] » وحكاه أيضاً ابن أبي أصيبعة في كتابه « الإنباء في تاريخ الأطباء[١٢٧] » . أن وزير محمود بن صالح الكلابي صاحب « حلب » كذا قيل ، وصرح الغزالي بأن القصة وقعت لرسل السلطان محمود بن سبكتكين قال في « النسمة » والظاهر أن كلام ابن أبي أصيبعة أصح لأنَّ المعرة من عمل حلب : وُشيَ إليه أنَّ المعريَّ زنديق لا يرى إفْساد الصور ، ويزعم أنَّ الرسالة تحصل بِصَفَاءِ العقل ، فبَعَث محمود على طلبه خمسين فارساً ليحملوه إليه ، فلما وصلوا إليه أنزلهم بدار الضيافة وأكرمهم ، فدخل عليه عَمُّهُ مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخي قد نزلت بنا هذه الحادثة ، الملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عارٌ علينا عند ذويْ الذمام ، فقال له : هَوِّنْ عليك عَمِّي ، فلا بأس علينا ، ولي سلطان ثم قال لغلامه قنبر[١٢٨] : قدم الماء فاغتسل [. . . .] وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : أين المريخ ؟ قال : هو في منزلة كذا فقال : زِنْهُ واضْرِبْ وَتَداً تحته . واعْقُدْ يَدِي ــ وفي روايةٍ ــ رجلي في خيط مُتَّصِلٍ بالوتد ، فسمعناه يقول : ياقديم الأزل ، ياعلة العلل ، ياصانع المخلوقات ، وموجد الموجودات ، أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، وجعل يقول : الضُيُوف الضُيوف ، الوزير ، الوزير ، ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة ، فسألنا عنها ، فقيل : هي دار الضيافة وقعت على ثمانية وأربعين من الضيوف ، وفي « النسمة » على الخمسين ،

وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ فإنَّ الوزير قد وقع عليه الحمام ، قال في « النسمة » وحكى الغزالي أن الحمام هو الواقع على الفرسان قال : وهو الأنسب بحال المريخ انتهى ، وفيه توضيح ــ قال يوسف بن علي فدخلت عليه فقال لي من أين أنت ؟ قلت : من أرض الله ! فقال : أنت من أرض الهركان[١٢٩] أنت يوسف بن علي . مملوك على مملى (؟) ، وزعموا أني زنديق ، ثم قال لي : اكتب على صفة الحالة :

بَـاتُـوا وَحَتْفِي أَمَـانِيهِمْ تُصَـوِّرُهُ ... وَبِتُّ لَمْ يَخْطُرُوْا مِنِّي عَلَى بَالِ
وَفَـوَّقُوْا لِي سِهَـاماً من سِهَـامِهِمُ ... فَـأَصْبَحُـوا وُقَّعـاً مِنِّي بِـأَنْبَـالِ
فَـمَا ظُنُوْنُـكَ إِذْ جُنْـدِي مَـلاَئِكَـةٌ ... وجُنْـدُهُم بَـيْنَ طَـوَّافٍ وَبَقَّـالِ
لَقِيْتُهُمْ بِعَصَـا مُـوسَى الَّتِي مَنَعَتْ ... فِـرعونَ مُلْكـاً ونَجَّتْ آلَ إِسْرَالِ
أَقُومُ خَمْسِيْ وَصَوْمِيْ الـدَّهْرَ آلَفُـهُ ... وَأُدْمِنُ الـذِّكْـرَ أَبْكَـاراً بِـآصَـالِ
عِيْدَيْنَ أَفْطِرُ فِي عَامِي إِذَا حَضَرَا ... عِيْدَ الأضاحى .. يَقْفُو عِيْدَ شَوَّالِ
إِذَا تَنَـافَسَتِ الْجُـلاَّسُ فِي حُلَلٍ ... رَأَيْتَنِي فِي عسيس[١٣٠] القطنِ سِرْبَالِي
لاَ آكُـلُ الْحَيَـوانَ الـدَّهْرَ مَـأْثُرَةً ... أَخَـافُ من سُوْءِ أَعْمَـالٍ وَآمَـالِ
وَكَيْفَ أَقْرَبُ طَعْم الشَّهْدِ وَهْوَ كذا ... غَصْبٌ لِمَكْسَبِ نَحْلٍ ذَاتِ أَطْفَالِ[١٣١]
نَهَيْتُهُمْ عَنْ حَـرَامِ الشَّرعِ أَجْمَعِهِ ... وَيَـأْمُـرُونِي بِتَـرْكِ الْمَنْزِلِ الْعَـالِي
وأَعْبُـدُ الله لاَ أَرْجُـو مَثُـوَبَتِـهُ ... لـكن تَـعَبُّـدَ إِكْـرَامٍ وَإِجْـلاَلِ
أَصُـونُ دِيْنِيَ عَنْ جُـعْـلٍ أُؤَمِّلُهُ ... إِذَا تَـعَبَّـدَ أَقْـوَامٌ بِـأَجْـعَـالِ

قال السَّيد العلامة الهادي : هذه الرواية كما سترى . والمقصود منها إخبار المعري ليوسف بن علي باسمه وصفته وإخباره بأنهم حملوه على قتله ، وزعموا أنه زنديق ، كل ذالك وهو غير مُخْبَرٍ بيوسف هذا ، ولا ماحاله ، وفي فعله ونظمه ونثره ما يخالف الشريعة النبوية ، منها ارتباطه بحب المريخ ومناجاته ، والاستغاثة به ، ونَفْي ماعداه ، وفيها مايشكل لتضمنها فعل الطَّاعة والذكر ، وأخطأ في شيء منها : أنه جعل الملائكة جنده ، وهم أعظم من أن يطلق عليهم ذالك أحد إلَّا الله تعالى ، ومنها قوله : لا يأكل اللحم ، وهو عين رأي البراهمة ، لأنهم يقولون به ، ومنها قوله : إنه لا يأكل العسل ، لأنه كسب النحل لأطفالها ، وقد

نقل هذا عنه [ولا نقول بتجزئة غيره فيما أحسب] .

قال السيد المذكور : وهو يمكن التأول ، لكن من تعمد أقواله وأخباره ، وصرح به فالتأويل سمج في حقه ، اللهم إلاّ أن موجبه موجب ، ولا موجب هنا .

ومنها قوله : إنَّه يعبد الله إجلالاً وإعظاماً لا مثوبة من خوف وخطر . . هذا قليل لكن المشروع أن يأتي المكلف بالعبادة على الوجه الذي كلف به ، وعلى الجملة فهذه الأبيات وأمثالها من النزغات الشيطانية . وأشنع منها وأنكر قوله :

أذَا مَـاذَكَـرْنَـا آدَمـا وفَعَـالَـهُ وتَـزْوِيجَهُ بِنْتَيْـهِ بِابْنَيْـهِ فِي الدُّنَـا
عَلِمْنَا بِأَنَّ الناس[١٣٢] مِنْ نَسْلِ فَاجِرٍ وَأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ عُنْصُرِ الزِّنَا

قال عُمَارَةُ اليمنيُّ في كتابه المسمى بـ « المفيد في أخبار زبيد[١٣٣] » : ومنهم من شعراء اليمن القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة ، وهو كبير فيهم[١٣٤] ، وكان فقيهاً شاعراً إماماً في العربية واللغة ، وقتله الملك جيَّاش بنُ نجاح صاحبُ زَبيد ، وأورد شيئاً من أشعاره . ثم قال : لما بلغ القاضي بيْتَا الْمَعرِيِّ المذكوران : إذَا ماذَكرنا آدماً ـ إلى آخرهما ـ [١٦٤] أجابَهُ بقوله :

لَعَمْرِكَ أمَّـا القَـول فِيْـك فَصَـادِقٌ وتَكْـذِبُ فِي الْبَاقِـيْنَ مَن شَطَّ أوْدَنَا
كَـذالِـكَ إقْـرارُ الْـفَتَى لازِمٌ لَـهُ ولاَ يَلْزَمُ الْبَاقِينَ فِي الشَّرْعِ عِنْدَنَا[١٣٥]

وأقول : هذا لا يكفي في الجواب ، فقد سمعت الهجاء والقذف في طرقه ، ولم أرَ كهذا التجاري على الأمم في ألوف من السنين .

[ورأيت في « تاريخ ابن واضح[١٣٦] » : أحمد بن يعقوب العباسي بعد أن ذكر تزوج هابيل بأخت قابيل ، وقابيل بأخت هابيل ، وأنَّ قابيل حسده أن يتزوج بأخته التي ولدت معه ثم قال وروى بعضهم أنَّ الله عز وجل أنزل لهابيل حوراء من الْجَنَّةِ فزوجه بها ، وأخرج لقابيل جِنِّيَّةً فزوجه بها فحسد قابيل أخاهُ على الحوراء فقال لهما آدم : قَرِّبَا قربانا فقرب قابيلُ من تبن زرعِهِ ، وقَرَّبَ هابيل أفضل كبش في غنمه ، لله ، فقبل الله قربان هابيل ، ولم يقبل قربان قابيل ،

فازداد نَغَاسَةً وحسداً وزين له الشيطان قتل أخيه فشدخه بالحجارة حتى قتله فسخط الله على قابيل ، وأنزله من الجبل المقدس إلى أرض يقال لها : [نُود ــ إلى آخر هذه الرواية ــ إنْ صَحَّتْ ــ رَدٌّ على الناظم بمنع الواقع من أصله] .

. . . فيهم الأنبياء والأتقياء والأصفياء بعد الأبدال ذي الزلفى وماقاله مندفع بأن ذالك ليس بحرام في تلك الشريعة . وما أظنه سبقه إلى مثل ماقاله أحد ، ولأمر ماقال :

فَـإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيْرَ زَمَـانُـهُ   لآتٍ بِمَـا لَمْ تَسْتَـطِعْـهُ الأَوَائِـلُ

قال ضياء الآل يوسف بن يحيى في « نسمة السحر » ما لفظ : وذكر الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ بيت أبي العلا في صفة نار القرى من القصيدة الفائية التي رثى بها النقيب أحمد الموسوي ، والد الرضي والمرتضى(١٣٧) وهو :

حمراءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى   تَـرْمِي بِكُـلِّ شَرَارَةٍ كَـطِرَافِ

وحمى عليه وقال : إنه أراد الزيادة على مافي القرآن من تشبيهها بالقصر ، ولا أدري من أين له أنه أراد الزيادة على تشبيه القرآن ، فمن المعلوم أنَّ القصر أعظم من الطراف وهي الخيمة من الأدم الأحمر ، يتخذها الأتراك البادون ، ومياسر العرب ، ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيراً ، انتهى .

وهو كلام متين إلا أنه كان على الضياء ذكر مأخَذِ جَارِ الله ، ولفظه : وكأنَّه قصد بِخُبْثِهِ أَنْ يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله : (حمراء) توطئة لها ومناداة عليها ، وتنبيهاً للسامعين على مكانها ، ولقد جمع الله له عَمَى الدارين عن قوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفر ﴾ فإنه بمنزلة قوله كبيت أحمر ، أنتهى .

فهذه التوطئة هي الحاملة ولا توجب وإليه يجب الانصاف ، وما أظن الحامل إلا إساءة الظن بالرجل إذ قد صار محل تهمهم [ ] لا سيما بعد المعارضة للقرآن :

ومن نظمه في تَتَبُّعِ الرُّخَصِ قوله المشهور عنه :

الشــافِعِيُّ مِنَ الأئِمَّـةُ وَاحِـدٌ ... وَلَـدَيْهِمُ الَشَّطْرَنْجُ غَـيْرُ حَـرَامِ
وأَبُـو حَنِيْفَةَ قَـالَ وَهْوَ مُصَـدَّقٌ ... فِيْـمَا يُفَسِّـرُهُ مِنَ الأحْـكَـامِ
شُـرْبُ الْمُثَلَّث وَالْمُنَصَّفِ جَـائِـزٌ ... فَـاشْرَبْ عَـلى أَمْنٍ من الأثَـامِ
وأَجَـازَ مـالِـك اللِّوَاطَ تَـظَرُّفـاً ... وهُـمُ دعَـائِمُ قُـبَّـةِ الإسْـلَامِ
وَأَجَـازَ دَاوُدُ الـسَّـمَـاعَ لِأَنَّـهُ ... طَرَبُ النُّفُوسِ وصِحَّة الأجْسَامِ
وَأَرى أُنَـاساً قَـدْ أجازُوْا مُتْعَـةً ... بِـالْقَـوْلِ لَا بِـالْعَقْـدِ وَالإبْـرَامِ
فَافْسُقْ وَلُطْ وَاشْرَبْ عَلَى أَمْنٍ وَخُذْ ... فِي كُـلِّ مَسْـأَلَـةٍ بِقَـوْلِ إمَـامِ

فتأمل فيما تراه ، وانظر إلى هذه الروايات المفتراة أو المحكيّة عن الأئمة على خلاف ماهي عليه ، ولو فرضنا صحتها أو شيء منها لكان ذالك من المأمور برده وعدم العمل عليه ، إذ يكون من شعر (؟) الرُّخص ، فما من عالم إلا وله زلة فَلَا يتبع بل يحذر ، وقد قيل : من يتبع أقوال الرجال مالت به من حال إلى حال ، وكان من دين الله على أعظم زوال ، وإيضاح ماتضمنته هذه الأبيات يحتاج فضل فراغ ، وإطالة ، ومن نظر جميع ماسلف ــ لم يجد للمنسوبة إليه مخلصاً مجدياً فانْتَفَى (؟) ماقيل [من] الاعتذار له بأن ذالك من أهل الحسد ومن عمل تلامذته ، وأقول : أخبرني أيها المعتذر له بما ذكر ، ما الحامل على ذالك ؟ وعلام حسد ؟! ثم هات نظراء بل نظير واحد من الشيعة أو غيرهم وقع عليه مثل هذا التمالئ ، وإتعاب الأفكار في الافتراء عليه [بنظم هذه القوافي التي تنفر عنها قلوب أولى الأحلام ، وترجف عند قراءتها وكتبها الأفئدة والأقلام ، اللهم إني استغفرك(١٣٨) به اللسان ، ويجنح به القلم في هذا الميدان ، والعجب من تخصيصه بذالك كون غيره اشتهر بالتشيع ممن لهم القصائد العديدة المستكملة في مدح الآل أو بعضهم ، كعبدالحميد بن أبي الحديد الذي فعل السبع العلويات ، كالسبع المعلقات وغيره قبله وبعده] والحسد داء قديم ولم يكن قبل زمانه عديم ، ثم كيف كان ذالك من تلامذته الأحقا ببرة والذَّب عنه ، وأن لا يكون أحد منهم كما قيل « فلما جل ساعده رماني » وكما في الأمثال العامية (أول ماتولَّى شنق أمه) إلا أن يكون لفساد العقيدة كالطلحة تثمر الشوك .

وهل هذا العذر إلاَّ اعتراف بصحة ذالك ، حتى لم يطلب الصحة أو دعوى على الغير فيحتاج البينة ، نعم تنبه لما أشار إليه القاضي اسحاق العبدي(١٣٩) حين قال بعد كلام تقدم معناه : وكانوا يزعمون [ ] أن له يداً في علم النجوم ، وتأثيراً في إتقانها ، وكان من أهل الرياضة والمتصرفين بخواص الأسماء ، وسمعت له بنوادر ولم أصدقها ، ثم رأيت بعض العلماء من المالكية قال في بعض مؤلفاته في أصول الدين . إن الغزالي كان يتصرف بالثلاثي أعني الوفق الثلاثي ويعظمه ، هذا وأنا أعرف أن الغزالي قد ذكر في بعض مؤلفاته أنَّ المعري كان من أهل هذه الطريقة فكفى بشهادته إنْ صح النقل كله . انتهى .

ولا يخفى أن الاكتفاء بشهادته لا تتوقف على صحة ذالك كله بل لا يقع إلا بعد الصحة وإلا فالبعض من هذه الفواقر يكفي ، وقد قتل غير واحدٍ من الزنادقة ماقيل على واحد منهم بعض مانقل عن هذا وذالك كالحلاج ، قتل أسوأ قتلة بعد الضرب الشديد والتقطيع لكل طرف تعبّد (؟) وحُرق بعد الصلب على كلمات قالها في مجلس بعض الكبراء ، وتعصب له أصحابه ووعدوا أنفسهم برجوعه ، وقالوا : لما زادت دِجْلَةُ إذ ذاك أنه بسبب وضع رفاده(١٤٠) فيها إلى خرافات كثيرة ، والحال أنه ليس من التشنيع في شيء أمَّا من كان كذالك فلا يكاد يضره عند أهل طريقته مافعل ، ولو كفر هذا مايقتضي به الأستقراء والتتبع ، والذي قاله ابن خلكان : ثبت المؤرخين(١٤١) اللسان أن المعري كان يرى رأي الطباعية من أنَّ موجد الولد أبوه ، وذكر أنه أنشد في مرضه الذي مات منه :

هذا جنَاه أبي عليَّ وما جَنَيْتُ عَلَى أحَدْ

يعني أنه لم يتزوج ولم يولد ، قال : وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت ، وليس وراء هذه الحالة شيء وهي الحقيقة بحسن الخاتمة أحسن الله خاتمتنا في الأمور كلها ، وحرر في شهر ربيع سنة ١٢١٤ بقلم كاتبه الفقير إلى الله سبحانه يحيى بن مطهر سامحه الله تعالى .

صنعاء : عبدالله بن محمد الحبشي